

وضعنا النقدي ، وضعنا الثقافي

عزيز الشرقاوي

(I) - أكيد أن مشاكل الثقافة والمثقفين في المغرب والعالم العربي كثير ما طرحت ونوقشت من طرف مختلف الأوساط الثقافية . ويمكن القول ننتيجة لذلك أن أكثر الاطراف قد حددت وجهة نظرها بهذه الدرجة والكيفية أو تلك حول هذه القضية الهامة من قضايا التحرر والتقدم المطروحة على الصعيدين الوطني والعربي بكل الحاح .

ان هذا يطرح بالضرورة تجاوز هذه المرحلة في توضيح المواقف الى مرحلة جديدة يميز فيها المثقفون التقدميون الخطوط الرئيسية لهذه المواقف وأصولها الاجتماعية الطبقية وأبعادها السياسية ، مع الكشف الصارم بين من يجيب فيها عن الاسئلة الحقيقية المطروحة فعلا ومن يجيب عن أسئلة مزيفة ومصطنعة ، وبالتالي التقدم نحو برامج تكتلات ثقافية مرحلية ودائمة .

ان هذا التقديم لن يكون بدون فائدة اذا نحن راينا بان هذه الملاحظات حول الثقافة في المغرب لا تجيب على أسئلته ، ذلك لان هناك بعضا من قضايا الثقافة عندها ما زالت بعد لم تطرح ، أو أنها - على الأقل - لم تطرح بشكل جيد وموضوعي ، ولذلك فان هذا المقال سيحاول الى جانب الاجابة عن بعض الاسئلة ، طرح أخرى على مثقفينا التقدميين بالمغرب لمزيد مناقشتها وابداء الآراء حولها .

مسبقا علينا أن نطرح سؤالاً : ما جدوى طرح المشكل الثقافي بالنسبة للمغرب والبلاد العربية التي تعيش مشاكل وقضايا تتجاوز الثقافة بالدرجة الأولى ؟

حقاً ليس جديداً - الا على البعض - القول بأن أحد المظاهر البارزة للصراع الطبقي في المغرب والعالم العربي بين قوى التقدم (الشعب) وقوى الرجعة هي الصراع الايديولوجي - الثقافي . والمسألة الثقافية - بالضبط لا تأخذ أهميتها الحاسمة الا من هذه الوجهة لا من غيرها ، كأداة طليعية - أحيانا - في هذا الصراع الذي لن يحل الا بانتصار الطبقات الثورية

- بالتالي - على ثقافة القهر والاستلاب الاقتصادية الاستعمارية والبورجوازية
كذلك .

ان كون الثقافة السائدة دائما هي ثقافة الطبقات السائدة اقتصاديا وسياسيا كحقيقة عامة ، يرغمنا على الاعتراف بان مجمل الثقافة المنتشرة والرسمية ذات السيادة في مجمل وطننا والبلاد العربية هي ثقافة رجعية استعمارية او بورجوازية محافظة من خلال مختلف مؤسسات الثقافة الجماهيرية : تعليم ، اعلام ، صحافة ، منشورات . . . الخ تلعب فيها تقييما .

طبقات الاقطاع والبورجوازية ومعهما الامبريالية الدور الاول والاخير وان بعض النشاز الذي يتخلل من حين لآخر نغمات هذه الجوقة المسلطة بالقهر على فكر ووجدان الجماهير والذي يصدر عن بعض الاوساط البورجوازية المعارضة لا تكنسي في الغالب الا شرط (هوموني) نجد مقدماته وشروط وجوده في صلب أسس الثقافة السائدة التي لا تحس ضررا - بل على العكس - من تقديم شروط ووسائل ثقافة مكتملة ومتممة للثقافة السائدة (تناقضها الداخلي وجدليتها الخاصة) ومبررة للموضع بشكل خداع . هذه الثقافة تسمى نفسها غالبا (معارضة) او حتى (وطنية) ويسميتها الناس الواعون اصلاحية وبورجوازية .

ان نقد هذا العالم ، عالم القهر والاستلاب اما ان يكون شاملا او لا يكون . والجماهير خلال نهوضها التاريخي وتقدمها الثوري لنقد وتغيير عالمها من أسسه وكل هياكله ومؤسساته (اقتصادية - سياسية - اجتماعية - ثقافية . . . الخ) حتى لا نترك فيه شيئا بدون قلب أو كيس أو تعديل وتجديد ، لا تستطيع تحقيق ذلك الى النهاية ودون وقوعه في ابيولوجية اصلاحية بورجوازية اذا هي لم تحطم اولا ذلك العالم من الخزعبلات والمقيسات الصنمية . . . الخ ، المنصوب بداخلها ، بدخيلة كل فرد فيها . لتبرير وقبول الواقع الراهن بمؤسساته وهياكله . انه بقدر ما هو صحيح تماما ان افكار وثقافة التقدم حالما تمتلكها الجماهير فانها تتحول الى قوة مادية . صحيح كذلك ان سيادة ثقافية رجعية وسط الجماهير لا يساهم في تأخير مسيرتها فقط ، بل ويساهم مع اعداء التغيير في عرقلتها . ان عالم القهر المادي ينعكس ثقافيا في نفسيات الجماهير ، وما لم تحطم الجماهير اولا انعكاسه الزائف هذا والملقن لها ، المحفوظ بدخيلتها فانها لن تستطيع ان تحطمه بخارجها كواقع مادي .

من هذا ومن هذا بالضبط ياتي تفسير وفهم اهداف وادوار الثقافة ، ومؤسسات الثقافة الرجعية السائدة : (ائناق) الناس بان ليس في الامكان ابداع مما هو كائن عن طريق بحث سفراء فوق العادة لتمثيل (ما هو كائن) بدخيلة الجماهير .

ومن هنا ، ومن هنا بالضبط تأتي أهمية دور النضال على الصعيد الثقافي بالنسبة للتقدميين العرب . من جهة كنس الخزعبات وفضوح المؤسسات الزائفة والرجعية المبتوثة في أذهان ونفسيات الجماهير لخداعها عن ظروفها ومحولة (من الحول) نظرتها الى واقعها المرفوض ، ومن جهة أخرى ، وانطلاقا من نفس أسس ذلك النقد الذي لن يكتسب تقدميته الا بشموليته وجذريته ، البدء من بناء ثقافة جديدة شعبية وديمقراطية من أجل الانسان العربي وتقدمه .

إذا اتضح الهدف ، اتضح تبعا لذلك الوسائل والادوار والادوات التي عليها أن تكون من الشعب والى الشعب أو لا تكون ، مستخلصة كل قيمها ومضامينها وأشكالها منه وتملكنا لأول مرة الرؤية الواعية والكفيلة بتمييز القضايا . والاسئلة الصحيحة الواقعية والهادفة من الاسئلة الزائفة والمضللة .

(2) - انه بالرغم من كون العديد من القطاعات الاجتماعية في المغرب وعلى الاخص في البادية (الجبال) ما زالت تحتفظ بمظاهر وأشكال ثقافية أصيلة (احتفظت ببعض قيم ومضامين وأشكال شعبية نظيفة من فعل وتأثير ثقافة الإقطاع والاستعمار وبفعل بعض الظروف التاريخية (اقتصادية جغرافية) وبالتالي فهي تقدم مادة وخميرة بل ومنبعها لا بأس بأهميته للانطلاق نحو بناء ثقافة جديدة من الشعب واليه ، فان علينا أن نلاحظ أن الرجعية تعمل حثيثا على غزوها وتشويهها لتخدعه بشتى الادوات والاساليب ليس أقلها الراعيو و (الفلكلور) . و (ترسيم) المواسيم الشعبية الاحتفالية مثلا .

(3) - ان تسجيل كون الخط الاصلاحى قد فشل بصفة شبه نهائية ويزداد ترديه ليس في المغرب وحسب بل في مجمل الوطن العربي وباقي أمم العالم المستقل (بالفتح) لا يعني تلقائيا فشله على الصعيد الايديولوجي الثقافي . بل ان ما نلحظه في الواقع هو العكس تماما . ذلك ان الخط الاصلاحى ما زال الى حد كبير هو المنتشر في اوساط الجماهير على الصعيد الفكرى - الثقافى . ذلك لانه اذا كان لنا أن نعتبر أن الاصلاحية قد فشلت سياسيا بفعل شروط الصراع الاقتصادى - الاجتماعى والدولى وبفعل ظروف تاريخية خارجية عن النوايا والارادات ، فان الفكر والثقافة رجعية كانت أم اصلاحية لا يمكن أن تزول من تلقاء ذاتها وباختيارها بل لابد من كنسها بفعل عامل واع لهذا الهدف ولضرورته وادواته ، ولن يكون ذلك سوى من بعض أهم مهام المثقفين التقدميين .

وعندنا ما زالت هذه الوضعية هي السائدة ، وما زالت هذه المهمة هي الاولى . وانظروا من حولكم الى الاصلاحية وسيادتها ثقافيا من خلال مختلف الهيئات الثقافية والنشريات (كتب - مجلات - صحافة . .) والشخصيات

الثقافية النشيطة . الا ترون أن واجبا أوليا ما زال مطروحا على ارادات
التقدم من الثقفين ، وهو أن يهدموا الفخرات المهترئة من ابنية ثقافة
البورجوارية الاصلاحية ، من أجل تسوية الارض وتهيئتها لابنية وعمارات
ثقافة الشعب الجديدة التي ستكون صلدة ومتينة بثوريتها وجميلة بطابعها
الانساني الشامل .

4 - وماذا عن ثقافة الشعب الحاضرة ؟

ليس من المشكوك فيه قطعا أن هناك ثقافة للشعب تسجل حضورها
الدائم الى جانب الثقافة أو الثقافات المكتوبة أو (الرسمية) .

وطوال التاريخ القديم أو الوسيط أو الحديث للمغرب ، اتسمت ثقافته
بكونها غير مكتوبة ، وذلك لا يعني كما قد يظن البعض أنها غير موجودة
أو لم يعبر عنها بشكل من الاشكال بل على العكس تماما فان الشعب المغربي
(ككل الشعوب) عبر عن نفسه ورغباته بأشكال أخرى وأدوات ، ليست
الكتابة من بينها الا أداة جد ثانوية . وذلك ليس عيبا حين نجد شروطه
في التاريخ ، (تاريخ شعب بدون دولة مركزية حقيقية يرتبط ظهور الكتابة
بوجودها وقوتها) .

التعبير عن الذات بالكتابة ليس ميزة حضارية بالنسبة للشعوب ،
حيث نجد أن الشعوب (ومنها المغرب) قد تعبر عن نفسها تماما ولكن ليس
دائما بالكتابة أو حتى اللغة . الكتابة ظاهرة تاريخية وليس (حضارية) .
بل انه ليتمكن القول أن الاعتماد على هذه الاداة وحدها في التعبير والتثقيف
ونقل القيم قد يؤدي الى تعطيل ضار لادوات تثقيفية وحواس لها أهميتها
الخاصة في ميدان التعبير والثقافة .

هناك وجه آخر للمسألة وهو أن مضمون هذه الثقافة الشعبية قد يكور
هو نفسه - السى جانب عوامل أخرى - عاملا في فرض هذه الاشكال
التعبيرية الخاصة بالشعب والتي ليس من بينها الكتابة الا في القليل .
بالاخص حين نعلم أن الشعب المغربي (والعربي) كانت نسبة الامية
فيه لا تتجاوز 5 % في أسوأ الاحوال قبيل الاستعمار الفرنسي . ان الكل
تقريبا كان يقرأ ويكتب ومع ذلك لم يترك لنا تاريخنا القومي تراثا ثقافيا
شعبيا مكتوبا . ولاسباب تاريخية كذلك (ظهور طبقة البورجوازية
القوية ودولتها الثائرة على كل تراث الماضي الاقطاعي) استطاعت أوروبا في
أوائل نهضتها رغم انتشار الامية فيها أن تعطي واقعا آخر تماما .

هذه النقطة تترك في اعقابها نتيجتين احدهما ايجابية وأخرى سلبية
ايجابية ، وقد المحنا اليها سابقا بكون هذه الثقافة بقيت في ظروف منيعة
عن التآثر بثقافة الطبقات الرجعية شبه السائدة . محتفظة بمضامينها
واشكالها . . . الخاصة . وسلبية بضياح هذا التراث الشعبي حتى الاقرب
حدائة منه ، مع تسجيل كون اشكاله ما زالت هي المستعملة للتعبير فسي

الغالب رغم تعرضها لخطر الغزو كما المخنا سابقا كذلك .
هذه النقطة ستفحصنا في نقط ستهما .

(5) - ما هو موقع المثقفين في المغرب ، والموسمين بالتقمية اتجا .
هذه الثقافة . ليس بالتمثل بالاحرى بل على الاقل بالتعرف والكشف ؟
على اعتبار ان هذه المهمة . تبقى دوما مطروحة بالحاح وبشكل مبدئي لكل
ثقافة تدعى لنفسها الجدة والتقدم .

نجد انفسنا مضطرين للاعتراف بالانفصال الصارخ والبعيد بين مثقفينا
وثقافة شعبيهم بشكل ملفت للانتباه والتذمر معا ، وان اهم عوامل ذلك
الوضعية الاجتماعية للمثقفين كبرجوازية صغرى تعيش حياتها الاقتصادية
والثقافة الخاصة والمعلقة والاجترارية بهمومها الذاتية و (متعها) المبتذلة ...
وحتى قلقها الواهم والميتافيزيقي ... الى جانب عوامل خارجية سياسية
واخرى نجدها متضمنة في مضمون وهيكل تعليمنا المتخلف الذي يهدف اول ما
يهدف ابعادنا عن قيم وتراث وواقع شعبينا المقهور بخزعبلات وأوهام
ايديولوجية طبقية وأخلاق ذاتية بذينة ومصطنعة باشغالنا بالماضي عز
الحاضر الحي وبالنموذج البرجوازي او الاستعماري الغربي عن الواقع
المساوي للامة .

اهمية هذه النقطة تتجلى حين نعلم ان الكفيل وحده بتقديم وتنوير
ثقافة الشعب الخميرية الخام ، هم المثقفون المذمجون والمتعلمون . المطمون
من الشعب واليه . وليس غير هؤلاء - بهذا الشرط - يستطيع تحقيق ذلك .

(6) - ان ما يفسر الازمة العامة والعميقة لثقافة وآداب البورجوازية
الصغرى على طول الوطن العربي وابتماعها الكبير عن التأثير والفعل في
الجماعير والاحداث وسير تاريخنا القومي . ليس مطلقا مشاكل تقنية من
مثل - نشر الامية - انعدام الحرية . الخ بل ان هذه كلها تقريبا ليست
سوى نتائج لوضع وحقيقة اخرى وجوهريه بعيدة عن الوعي والتفكير
البورجوازيين (مصر وسوريا مثلا حيث تضعف الى حد كبير حدة مثل تلك
المشاكل ، نجد ان الازمة تنسحب هي الاخرى) انها تمثل بالضبط في ابتعاد
المثقفين العرب عن استيعاء (كشف - تمثل - هضم) ثقافة وأشكال ثقافة
الشعب ، والقفز من ذلك الى (تمثل) ثقافة الماضين او الغرب . هذا
الوضع القلوب والمصطنع بفعل التاريخ والصراع الاجتماعي المتخلف هو
عينه ما ينتج فوقية وهامشية ثقافة البورجوازية الصغرى المنتشرة وبالتالي
ما يبعد المثقفين عن التعبير المعيد لتشكيل الواقع الى التبرير او حتى تزبيد
الواقع ، من الابداع والخيال الخلاق المتجاوز لاضاع الواقع الراهن الى
الاجترار وتكرار الذات بشتى المساحيق الموهمة بالتجديد والتطوير وتيس
من ذلك شيء في الواقع الفعلي .

ليس هناك من مناعة وصيانة وضمانة عن الوقوع في ثقافة الذاتيات

لمريضة والقلق والشكوك الشخصية المنحرفة ، سوى بالصعود نحو الشعب بقيمه وثقافته الحقيقية وليس (للفلكورية) . سوى بتخطي التبرير نحو التعبير وكس الاحترار من أجل الابداع والخلق وان مادة ذلك التعبير والابداع وعناصره وأشكاله لتكمن بأجلى مظاهرها في الشعب وحده ، وليس غير الشعب من يستطيع تقديمها ، واكتشافها فيه ولاجله .

(7) - واجب نقد الاوضاع بمجملها : ومنها الوضع الثقافي العربي بشكل شامل وتقدمي ، شرط يبقى دائما ضروريا لكل تقدم وتغيير ممكن ومطروح ، فان الثقافات الرائجة على الصعيد العربي والوطن ، مطروحة أكثر لهذا النقد المخطط الهادف . اعتبر أن أشد ما يشكل عرقلة لانتشار ثقافة جديدة ، وما يكتسي صورة أكثر شيوعا وثباتا ، من الوضع الحالي هو فكر وثقافة الاصلاحية البورجوازية (الوسطى - الصغرى - بورجوازية الدولة) ذلك لان المثقفين والجماهير اذا كانت تستطيع تمييز الوجه الطبقي والاستيعابي لثقافة الاقطاع والامبريالية الى حد ما ، وأن ترفضها بهذا الشكل أو ذلك ، فان ثقافة البورجوازية (الاصلاحية التبريرية) كثيرا ما ننسك نحو الجماهير والمثقفين بأصباغ وأشكال متعددة مطبوعة بطابع المعارضة والنقد (الجزئي) والرفض (المينافيزيقي أو السطحي) . وحتى مختلف اطوار المرصية الذاتية المكتنبة في الكثير لبعض صور السخط والتدمر أو اندلال والغنج . هذا التقدم الخادع الى الجماهير يوحد المعارضة الناقدة والرافضة ، خدع وما يزال - بفعل شروط مرحلة تاريخية معينة - هذه الجماهير ومثقفها التقدميين الى حد كبير .

فأي شكل من أشكال النقد يجب ممارسته للجواب عن هذا السؤال ونادية هذه المهمة ؟ في الواقع يمكن أن نعتبر السؤال غير موضوع على الأقل الآن بشكل جيد بالخاص اذا ما انتقلنا على الشكلين المعهودين السلبي والايجابي ، أو بالأصح : النقد المباشر المشاع عادة باسم النقد الادبي . والنقد عن طريق الممارسة : ممارسة ثقافية جديدة ، وهو الشكل الاساسي للنقد العلمي الحقيقي والعلمي . يمكن اذن طرح السؤال بصيغة أخرى : أي شكل من هذين الشكلين في النقد سيحقق صفة الاسبقية في مرحلتنا الراهنة ؟ وبعيدا عن أي نوع من اللبس أو سوء التفاهم ، علينا توضيح أننا لا نقيم تعارضا - مبدئيا - بين هذين الشكلين في النقد ، وان هذا التعارض (ولا أتول التناقض) - ان كان موجودا حقا - مشروط بهذه المرحلة المعاشة التي لم تتعد كونها مرحلة مؤقتة - (اجتيازية) - ولكي نكون أكثر وضوحا نتجاوز كل هذا ونجيب عن السؤال مفصلين فيه سبب طرحه الذي قد يعتبر عند البعض مفتعلا ووهميا .

انتظار المثقفين العرب التقدميين لأشكال وبنى ثقافية جديدة (النقد بالممارسة) قبل أن ينتقدوا بشكل شامل ودائم البنى الثقافية البورجوازية

هو ما يفرض حاليا الاهتمام الجدي والدائم بالنقد (الادبي) قبل ان يبدعوا أشكالاً وبنى ثقافية جديدة . لماذا ؟ لان انتظاريتهم تلك تترك آثارا سلبية ليس فقط في انتشار ورسوخ الثقافة ونقدها البورجوازيان التبريريان في المساحة العربية ، بل وبالاساس بروز وتهييء (بحث - بناء - خلق) هياكل وقيم وأشكال . . . الثقافة الجديدة المنسودة نفسها ، فكيف يقع ذلك بقية . . . أكثر ؟

(أ) - يعترض المثقفين الطلابيين من أجل نقد في الممارسة تراث ضخم من أكاذيب وترهات (علمية) الحراسات الاستشراقية وما يعادلها للثقافة الشعبية العربية مع الهجوم البورجوازي الاستعماري على هذه الثقافة وتشويهها وإفراغها من أي مضمون جماعي وأصيل بفلكلورها من أجل إرضاء مزاج ونفسية البورجوازي المتبدل الغربي والعربي ، التي جانب سيل لا بأس به من منشورات (كتب - مجلات - صحف) ثقافية تافهة للبورجوازية العربية تتقدم للمثقفين في أغلبها على أنها النموذج للثقافة نقادة ومعارضسة .

ان هذا الانتاج الضخم والزائد والمعروض بشكل سائد في كل المجالات الثقافية والمهيمن السائب لتفكير المثقفين العرب هو أكبر ما يعرقل هذه المسيرة المفروضة من أجل نقد في الممارسة حقيقي وفعال .

النقد في الممارسة لا يعني تغيير (المضمون) فحسب ، مع الاحتفاظ بالأشكال السائدة للثقافة ، (أدب ، فن . . .) . ان من يعتقد بذلك يكون تماما كمثل من يسعى عبثا - التي تغيير محتوى نظام (اقتصادي ، اجتماعي . . .) مع الاحتفاظ بنفس هياكله ، ان النقد في الممارسة ، كأي نقد ، اما ان يكون شاملا كليا والا فهو تبريري . ان ممارسة جديدة في الثقافة تعني خلق وابداع نماذج جديدة تماما بكل ملامحها وقيمتها ومضامينها وأشكالها كذلك . ان كل شكل (أدبي أو فني . . .) يحمل في احشائه بالضرورة مضمونه الاصيل ، وهو في نفس الوقت يدل تاريخيا على رؤية وتصور خاصين - تبعا للمرحلة السائدة بها - الى الكون والانسان (بعدا ميتافيزيقيا) .

هذه الحقيقة تعني في - الممارسة - ان محاولة الاستعمال الساذج لاي شكل من الأشكال السائدة وحتى لاغراض ومحتويات تقدمية ، غالبا ما يحمل في ذاته أهدافا تتجاوز المستعمل ولم تطرح له على بال . وبالتالي فان الخطة تنقلب الى ضدها ، حين يصبح الشكل مستعملا للكاتب الذي يستحيل في هذه الحالة الى خادم مطيع لاغراض تتجاوزه . ان المعادلة التي أصبحت شبه سائدة ، والقائلة بارتباط الشكل بمضمونه ، وبأن كل مضمون يخلق شكله الخاص لا تصبح صحيحة تماما الا حين نعكسها لنقول ان كل شكل يحمل مضمونه الخاص كذلك

ليس يعني ذلك مطلقا الامتناع نهائيا عن استعمال أي شكل من الاشكال الثقافية السائدة ، بل على العكس يجب استقلالها أو الاستمادة عنها ما أمكن ذلك ، لانها جزء من تراث الانسانية قبل أن تكون نتاج طبقة ومرحلة تاريخية معينة ، ولكن بشرط (أن نستعملها) حقا حتى لا تستعملنا أي أن نعيها جيدا كإداة ، وأن نستطيع تفسيرها علميا وأن نكتشف توانينها الخاصة ، قبل أن نعبر من خلالها عن مضاميننا ، أي باختصار أن نمتلكها جيدا بدل أن نمتلكنا كما هو واقع حاليا بالنسبة لأكثر المثقفين (المبدعين) العرب .

اذن لنبدأ أولا بنقد الاشكال قبل أن نبدأ بالتعبير بها ومن خلالها فهذه مهمة .

ولكن هذا الطرح ليس هو الوجه الوحيد في المسألة بل هناك ما هو اصح وأقرب وهو اشكال الادب الشعبي نفسها وبالاساس . إذا أردنا (نقدا في الممارسة) أي إبداع أدب وفن جديدين حقا في الساحة العربية نابعين من الشعب وصادرين اليه ، فلماذا لا نتجه اليه أولا ، مستمدين منه ليس مادة هذه الثقافة الجديدة بل أشكالها كذلك . وهذا هو الطبيعي لحل مجمل تلك التناقضات والمعادلات الصعبة السالفة ثقافة للشعب يجب أن تكون منه هو نفسه بكل مقوماتها والا فليست شعبية ولا جديدة .

هذه الطريق أبسط ما يعترضها الانفصال الصارخ والذي لا يزداد الا تباعدا بين المثقفين العرب وشعوبهم (الا استثناءات كثورة فلسطين) ، الى جانب ما كنا المحنا اليه من ظروف التعليم وشروطه الخاصة التطبيقية وسواد وهيمنة قيم الثقافة والفكر البرجوازيين على أكثر مثقفينا .

يتضح اذن أننا لسنا فقط بعيدين عن خلق نماذج ثقافية جديدة ورائدة نابعة من الشعب واليه ، بل الادهى أننا ما زلنا لم نتصل على الاقل بهذه الثقافة الشعبية ونطلع عليها ونعرف كيف هي ، حقيقة ، وبالاخص لاننا نعرف تزييف الفلكلور وتشويهاته لجانب منها (المعشش في الادمغة) . فما العمل اذن ؟ على الاقل ، وكمرحلة ، علينا تحطيم ذلك السور الصيني الزائف الذي يحول بين المثقفين وبين ثقافة شعبيهم وان نبدأ في التعرف ، في الاطلاع ، في الكشف . . . عن قيم ومقومات وأصالة وأشكال ثقافة شعوبنا وهذه مهمة ثانية .

ولنصعد درجا آخر أرقى في نقاشنا ، يلزم إبراز البناء الخلفي والرئيسي لهذه الأوجه من مشاكل (النقد في الممارسة) وغيرها مما لم يطرح . انه يمكن حتما في الممارسة اليومية للجماهير نفسها . ان ميدان (نقد في الممارسة) ثقافي لن يكون بالضبط سوى (نقد في الممارسة) نخوضه الجماهير الشعبية العربية بنفسها : بأسلوبها وبقيادتها ولاهدافها الحقيقية .

ما لم تنهض الجماهير الغربية والعربية عموما بحركتها التاريخية (الاشتراكية الوحدوية) وتمارس خطها الخاص بها ، فان خطها على الصعيد الثقافي ، يبقى - ان لم نقل منعزلا - ضعيفا وعارضا وجزئيا .

ان تجارب التاريخ - القريب والبعيد - هي اكبر دليل على هذه الحقيقة ، في الصين بثورتها الثقافية الاولى (اثناء المسيرة) والثانية (64) ، وأدب وفن شعوب أوروبا في الحرب الكبرى الثانية ، وحركة ماي 68 بفرنسا . الخ وهذه الثورة الفلسطينية خلقت وما تزال مناخا وانتاجا ثقافيا مغايرا ، في الدرجة على الأقل ، لمناخ وثقافة البورجوازية السائدة في الوطن العربي ، وهو بشروط ضعفه ونواقصه حتى الآن يمثل مستوى حركة الجماهير الفلسطينية العربية التي ما تزال تتعثر . ان مجمل

هذه الأوضاع في الوطن العربي هو ما يفسر افتقاره حتى الآن أو اجهاضه لكل امكانية لخلق نماذج جيدة أدبية أو فنية ديمقراطية وشعبية حقا ، وهو ما يفسر كذلك تفاهة وسطحية وانعدام تأثير الانتاجات الثقافية المنتشرة اليوم حتى بالنسبة لافضل نماذجها .

وباختصار ماذا نريد قوله ؟ في أسوأ الاحوال فانني لا أعود الى الصمت والتوقف عن أي محاولة للنقد عن طريق الابداع والتعبير ، لا ، ولكن فقط علينا الا ننخدع ونخدع أنفسنا وبعضنا بادعاء انه في الامكان حاليا خلق نماذج ادبية أو فنية جديدة ورائدة بكل سهولة و فقط لان النية مبيتة على اقتحام هذا السبيل الذي تعترضه - كما اتضح - شتى السدود والعراقيل (التاريخية) والمرحلية .

وعلى كل من يحاول ذلك ان يكون واعيا تمام الوعي بكل تلك الشروط مهينا بكل وسائل الثقافة العلمية وحصانة الاندماج وسط الجماهير وممارستها النضالية والا وقع في الفخ البورجوازي المنصوب لكل السذج المعتمدين على (النيات) ممن يدعون (التقدمية الوطنية) .

وحتى نكون واضحين متفاهمين وحتى لا نقع مستقبلا في غرور ما نقول : بانه مهما تعددت هذه النماذج الجيدة المستكملة لكل احوالها وشروطها . . . فانها ستبقى جزئية عارضة غير شاملة بالضرورة لكل اشكال وصور التعبير المختلفة . فاذا كانت شعرا مثلا فمن للقصة وللرواية والمسرحية واذا كانت لوحة فمن للموسيقى وللرقص وللغناء وللسينما . الخ ستبقى جزيرة أو جزرا مضيئة حقا ولكنها وسط محيط من الظلام أو الاضواء الباهتة الصادرة من ثقافة البورجوازية الصغرى (الثقافة الغيبية وثقافة الامبريالية) . هذا اذا لم تقع في اخطار من نوع الشعبوية المتهافنة المقدسة لكل شاذ صادر من شعب في غير مرحلة نهوضه أو انتاج فلكلوري مبتذل وشكلي مريض بارضاء النفسية البورجوازية (كما هو واقع بالنسبة لكثير من أدباء المغرب العربي المعبرين بالفرنسية أو الرسامين ورجال

انها ستبقى رهينة بشروط الاوضاع الراهنة ما لم تتغير تلك الشروط
بنهضة جماهيرية كما أسلفنا ، تنهض معها شروط ثقافة جديدة تقوم بنقد
ثقافي حقيقي من خلال ممارسة ثقافة جديدة وشعبية حقيقية .

ب) تبقى اذن مهمة النقد المبدئي والادبي امام مثل هذه الصعوبات
المرحلية ، ومساهمة في حلها وتجاوزها ، مهمة تكتسي صبغة الاولوية
والالاحاق في المرحلة الراهنة على الاقل ، ولكن هذه هي الاخرى كذلك ما زال
مطروحا عليها مشاكل (أقل من السابقة على كل حال) عليها ان تحلها
بدءا وقبل الشروع في هذا النقد .

وأول هذه المشاكل وأكبرها هو مشكل المصطلح النقدي أو بصـورة
اعرض : مشكل مناهج النقد المطروحة واختيار أصلها .

هذان المشكلان ليسا في التحليل الاخير سوى مشكل ايديولوجي -
فلسفي ، ان كل مصطلح أو منهج يحمل في احشائه حتما خلفية فكرية تختصر
نفسها ورؤيتها وتحليلها من خلال المصطلح النقدي والمنهج الذي يلائمه
ويستعمل في اطاره ويتبادل الخدمة معه . فيستحيل فهم كل نقد أو منهج
نقدي الى فهم لمصطلحاته نفسها أي أدوات وعلامات مروره ان شئنا القول .
كل نقد يختص نفسه في المصطلح النقدي ، وكل مصطلح نقدي لا يتعدى كونه
المجيب أو أداة الاجابة على السؤال الذي يطرحه مسبقا أي منهج نقدي
قبل البدء في الجواب عليه من خلال دراسة أو تحليل المادة المطروحة عليه
للنقد .

كل نقد هو رد فعل اجتماعي - ثقافي ، لعتاء فردي معبر بالضرورة عن
جماعة وعن مرحلة . وهذا النقد - الرد لا بد أن يطبع الطبقة الاجتماعية
التي يصدر منها واليها والتي لا يتجاوز الناقد - أيا كان - كونه أداتها
المطبعة في هذا الرد وبهذا الشكل أو ذلك .

ويمكن - نظريا - تمييز نوعين من مناهج النقد الممكنة ، من خلال
السؤال الذي يطرحه على نفسه كل منهج نقدي . وهناك من جهة منهج يحارل
الاجابة عن سؤال كيف ؟ (وهو السائد عندنا غالبا) وآخر عن سؤال لماذا ؟
(وهو ما نحن أحوج اليه) .

ان مناهج البحث عن الكيف وليس عن اللماذا تنطلق بدءا بقبول المعطى
على المستوى الفكري والتاريخي ، ولا تبحث عن سؤال لماذا كان كذلك ولم
يكن غيره بل عن كيف هو وحسب . منهج تبريري منذ المنطلق مهما كانت
نتائج احكام ذلك الناقد قابلة أو رافضة ، مادحة أو شامتة أو محايدة مدعية
موضوعية ووسطية فجة .

هذا المنهج مهما تعددت سبله وأدواته (نفسي - اجتماعي - فلسفي -
جمالي - لغوي) يلتقي في نتيجة واحدة : تحليل شكلي - تعقيدات تفسيرية

رثاويلية تبريرية ، حتى إذا كان ذلك النقد يدعى فقط محاولة القهم والتفسير والتبسيط أو على العكس نقد المادة الثقافية على أساس مخالفتها للاصول والاعراف الثقافية ، يبقى رغم ذلك - أو بسببه - متمما فقط ومكتملا اذك العطاء الثقافي وليس رد فعل حقيقي له .

هذا المنهج هو المنهج البرجوازي - الاصلاحى المكيف المشذب لكل العطاءات مهما كانت تقدمية لارجاعها الى الوضع وتكييفها - قسرا - معه . وهو السائد عندنا بصفة غالبية . وهو ما انتج له كثيرا من مصطلحات النقد الزائفة المبررة التي تستعمل للبحث في كل شيء ولا تبحث عن شيء فى الاخير . هذه المصطلحات - الاوتات هي ما يجب رفضه وهذا النقد هو ما يجب نقده ، انه واجب نقد النقد كمهمة .

المنهج الثانى منهج للماذا لا يطرح حقا منهج البحث فى الكيف نهائيا . ولكنه لا يستعمله للدوران فى فراغ الجدال وهيف التكييف ، بل كمساءد فقط للجواب عن السؤال الرئيسى ، دائما . وهو لماذا كان هذا العطاء (أي عطاء) هكذا ولم يكن غيره . هذا السؤال وطرحه يحملان بحد ذاتهما امكانية الرفض ، بل وفكر التغيير ، حول شكل الثقافة فى العالم العربي . قد تصل مع أي مثقف برجوازي الى انها متخلفة غير فاعلة وتحمل كثيرا من آثار الاقطاع والاستعمار ، وهي مكبوتة وغير متحررة . . . الخ ولكنه يقف معك عند هذا الحد ولا يستطيع تجاوزه ، لانه الى هذا الحد يكون قد اجاب عن سؤال كيف . اما لماذا كانت هذه الثقافة كذلك ولم تكن غير ذلك ، فهذا يضطره الى الرجوع للتاريخ ، والتاريخ العادي وليست الميتافيزيقي ، والى الواقع الاجتماعى والتاريخى ، وليد الصراع الطبقي فى المجتمع .

هذا المنهج ، هو المنهج التقدمى الجدلي والفعال ، الذى يعيد خالق العطاء ، ويبدعه من جديد عن طريق اعطائه مدلولات التاريخى الحق ، وموقعه الاجتماعى التاريخى ، فى حياة الناس العملية ، هذا المنهج فى النقد يعتمد بالتاريخ كأداة رئيسية له فى التحليل ، والحكم بدل خزعات علوم النفس والاجتماع و . . . من أدوات الرأسمالية لتكييف الانسان لمجتمعاتها ونظمها القهرية الاستلابية ، وهو ما نحن فى أشد الحاجة اليه فى المرحلة الراهنة . وكل المراحل بعدما . انه المنهج الذى يحاول التقدم بنا اماما بدل الالتفات الى الوراء ، أو النكوص عن الواقع - أي واقع - ومنه الثقافى ، نبحث فيه عن كيف هو ، بينما المطروح هو اكتشاف قانونه يطرح سؤال لماذا هو كذلك ، من أجل تجاوزه ، والتطلع الى آفاق اصح وافضل .

الكيف يقصر حركتنا عند الواقع (أشكاله ، ظروفه ، تلويحاته . . .) بينما للماذا تتجاوز بنا الواقع ، مستشرفين آفاقا أخرى أبداع وأحسن . هذا النقد الجديد يحتاج الى مصطلحات نقدية جديدة سنخلقها حالما نفتتح بمسؤوليتنا فى انجازه ، وهذه مهمة أخرى .

اقول هذا حتى لا ننخدع (مرة أخرى) فنحاول ممارسة نقد جديد حقا ، بنفس أدوات ومصطلحات النقد التبريري السائد ، انه عين الوهم والانتقائية على الصعيد الثقافي ، ان للمصطلحات استقلالها الذاتي المكتسب من محتوياتها الفكرية الخاصة بها ، وكل من يحاول استعمالها - دون وعي ذلك - لابد واقع في تحقيق اهداف تتجاوز مقصوده ، فيصبح خادما ممتلكا لمصطلحات (هـ) بدل العكس ، كما هو مفروض ، والذي لن يتحقق سوى بوعي المصطلح . أي (بنقده) ، وبهذا وحده أي بنقد المصطلح نفسه ، نكون قد ابدعنا مصطلحا جديدا وخلقناه خلقا .

كل هذا لن ينسيني لحظة ان كل هذه الوسائل يبقى حلها مرتها الى حد كبير بتقدم وتطوير ممارسة النقد السياسي التقدمي نفسه ، أي الارضية الضرورية واللازمة لنقد ثقافي جديد حقا . ان أي منهج في النقد يدعي الجدة لابد له من الارتباط بنقد سياسي جديد حقا ، ولن يكون أي مصطلح نقدي جديد سوى وليد المصطلح النقدي السياسي الجديد هو الآخر . وحقل كل هذه الثمار والازهار المرجوة سيبقى دوما هو نضالات وتقدم نضالات الجماهير العربية ، ومدى ما تصل اليه من النضج والنهوض والاستقلال .

لا اعود - مرة أخرى - الى الفكوس ، والتوقف حتى نهضة الجماهير هذه ، أبدا ، فالجماهير العربية دائما تتحرك . وضرورة محايضة وخدمة كل اليايين لبعضها البعض - ومنها الثقافي - ضرورة لا ينكرها أحد . فالنضال الثقافي يخدم نضال الجماهير ، ويضيئه كما العكس ، ولكن فقط أن نكون واعين بحدود كل نضال ثقافي وآفاقه على المدى البعيد ، حتى لا نخل بالتوازن ونخطئ ترتيب الاسبقيات ، ونقع في ممارسات ثقافية خاطئة ، رغم واجتها التقدمية التي قد ينظلي عليها الوهم .

(8) - من أجل انجاز جملة هذه المهام وغيرها ، لا يمكن مطلقا الاكتفاء بالمجهودات والاجتهادات الفردية العارضة والجزئية وحسب المزاج ، بل لابد من تنظيم الارادات الفردية الوطنية الخلاقة ، وتكتيلها وفق برنامج وخطط ثقافية متقدمة ونضالية .

ان هذا الشرط المادي لعمل ثقافي جدي وفعال يعتبر مبدئيا في هذه المرحلة وكل المراحل بعدها ، وعدم الاهتمام به لن يؤثر سوى في السيرة الثقافية النضالية نفسها .

هذه الكنلة الثقافية التقدمية والتقدمية بالنسبة لجملة الكتل الثقافية الحاصلة اليوم ستعمل - الى جانب مهمتها في المواجهة والنقد وابداع النموذج الجديد - على تجميع شقات المثقفين الوطنيين والتقدميين ، المعثرين حاليا او حتى المستلبين من طرف شتى أجهزة الثقافة الاستعمارية الاقطاعية أو البورجوازية باغراءاتها المادية الوفيرة
واذن فعلينا أن لا نتردد ، في هذه المرحلة من تاريخ ثقافتنا الوطنية في

العمل على تهييء كل الشروط والوسائل والجسور . . . التي ستصلنا ببعضنا البعض ، كل الميادين الوطنية التي يمكن أن يلتقي حولها المثقفون الوطنيون المخلصون من أجل عمل انقادي ونقدي ووطني ، جميع الحبال التي يمكن أن تربط ارادات التقدم والتحرر من المثقفين الى بعضهم ، علينا ان نمدحها ونمتن من نسجها وقوتها .

ان فرص كل ذلك مازالت متحققة ، فعلينا ان لا نترك للزمن تنفيذ قوانينه الخاصة والبطيئة ، علينا ان نحوله هو الآخر الى أداة من أدوات العمل من أجل انجاز هذه الشروط والاهداف الوطنية .

اذن . . فلنبدا . %